توطئة

بقلم: جيرمي إيرب وسُت جالي

في الوقت الذي تبين فيه عدم صحة الأسباب التي قدمتها الحكومة لشن الحرب على العراق- فقد تبين عدم وجود أسلحة دمار شامل في العراق، وأنه لا يشكل خطراً داهماً على الولايات المتحدة، وعدم وجود علاقة للعراق بأحداث 11 سبتمبر- نجد أن مناقشات وسائل الإعلام السائدة اقتصرت على قضايا الاستخبارات وفشل أجهزة الاستخبارات. ولم تول هذه الأجهزة سوى قليل من الاهتمام إلى ما ذكره عدد كبير من الخبراء حول السبب الحقيقي وراء تلك الحرب واحتلال العراق: السيطرة على الموارد المتضائلة، واستعراض القوة العسكرية الأمريكية بطريقة استفزازية، والفلسفة المتطرفة للمحافظين الجدد التي تدعو علناً إلى تمجيد مزايا هذا التوجه المتسارع والجديد نحو ترسيخ الإمبراطورية الأمريكية.

تم إجراء المقابلات المتضمنة في هذا الكتاب لصالح فيلم وثائقي (بنفس العنوان:اختطاف كارثة: الخوف والترويج للإمبراطورية الأمريكية) يعالج جذور المحافظين الجدد والآثار السياسية لطريقة تعامل إدارة بوش مع هجمات 11 سبتمبر. وقد وضع المطلعون على خفايا هذه الإدارة وأكثر من عشرين محللاً سياسياً بارزاً ظهور ما يطلق عليه "مذهب بوش" والحرب على العراق في سياق سعي المحافظين الجدد الذي استمر على مدى عقدين من الزمان إلى زيادات مغالية في النفقات العسكرية وإعادة تشكيل العالم في حقبة ما بعد الحرب

الباردة باستخدام القوة العسكرية. وهدفنا من نشر محتوى ذاك الفيلم في كتاب هو الهدف ذاته الذي أنتجنا من أجله الفيلم، وهو وضع تحليل للأفكار والدوافع التي تقف وراء السياسية الخارجية الأمريكية في هذا المنعطف الحرج من التاريخ الأمريكي.

وهذه المقابلات، إذا ما نظرنا إليها بشكل شمولي، فإنها توضح ثلاثة محاور أساسية: الأسباب الحقيقية لقيام إدارة بوش بشن حرب على العراق؛ الأسلوب الذي روجت فيه الحكومة الحرب أمام الشعب الأمريكي؛ العواقب المحلية والدولية للتحوّل المفاجئ للسياسة الخارجية الأمريكية بعد أحداث 11 سبتمبر.

وركز عدد من المقابلات على الخطورة الإستراتيجية التي وضعها صقور السياسية الخارجية من المحافظين الجدد بعد الحرب الباردة للتخلص من التوافق في الرأي الذي كان سائداً حول الدور الأمريكي في العالم، وذلك عن طريق الدعوة إلى زيادة حادة في النفقات العسكرية بعد سقوط الاتحاد السوفييتي. وتمثل حلم المحافظين الجدد بإظهار وتوسيع الهيمنة العسكرية الأمريكية بدون منازع في القرن الحادي والعشرين. واحتوت الخطط الإستراتيجية للدفاع التي وضعت بداية أعوام التسعينيات على يد بول ولفوويتس وريتشارد بيرل ودك تشيني وغيرهم من المرتبطين بمعاهد الفكر التابعة للمحافظين الجدد كمنظمة "**مشروع القرن الأمريكي الجديد**"، احتوت على حقيقتين تاريخيتين تم تجاهلهما تماماً في هذا المناخ السياسي المشحون: الأولى: أن هجمات الحادي عشر من سبتمبر كانت متطابقة تماماً مع الذريعة التي ذكرت تلك الخطط أنها ضرورية من أجل تسويغ الحشد العسكري الجديد الذي دعت إليه؛ وثانياً: أن خطط شن الحرب على العراق وتعزيز القواعد الأمريكية في الشرق الأوسط كانت موضوعة قبل ظهور ذريعة الحادي عشر من سبتمبر. وجاءت الكارثة المنتظرة كما تنبأت بها الخطط التي وضعتها منظمة **مشروع**

القرن الأمريكي الجديد في سبتمبر من عام 2000، أي قبل سنة كاملة من سماع معظم الشعب الأمريكي بأسامة بن لادن، حيث ورد في تلك الورقة الإستراتيجية ما نصه: "..إن عملية التحول هذه(*)، حتى وإن جلبت تغيرات جذرية، فإن من المرجح أن تتطلب وقتاً طويلاً ما لم يقع حادث مأساوي فظيع - مثل بيرل هاربر جديدة".

وأثناء عملية معاينة الطريقة التي تسللت من خلالها هذه الأجندة المتطرفة إلى مراتب التوجهات السائدة للحكومة دون أي نقاش عام، فإن عدداً من هذه المقابلات انتقلت من وصف السياسة إلى وصف المناورات والحيل السياسية للكشف عن كيفية استخدام الحكومة لوسائل الإعلام الدارجة من أجل تسويغ الحرب على العراق في غمرة الصدمة العاطفية لأحداث 11 سبتمبر. ومن النقاط المحورية في هذه المعاينة قيام وسائل الإعلام بإحلال صدام حسين محل أسامة بن لادن في الخطابات والبيانات السياسية لحكومة بوش كرمز للحرب على الإرهاب؛ وإقناع المواطن الأمريكي العادي بالتزام الصمت في الوقت الذي تتلاشى فيه الحقوق والحريات المدنية داخل الولايات المتحدة، وتتنامى فيه الإمبراطورية الأمريكية حول العالم.

وإلى جانب هذه المعاينة القريبة لكيفية استغلال إدارة بوش التخويف والتوتر في أعقاب 11 سبتمبر من أجل حشد التأييد الشعبي لبرامج المحافظين الجدد المثيرة للجدل تحت قناع "الحرب على الإرهاب"، قمنا أيضاً بالتركيز على محاولات الحكومة الأمريكية تشتيت الانتباه بعيداً عن جوهر سياساتها عن طريق استغلال المخزون التخيلي لأنماط بدائية للرجولة في الأسطورة الأمريكية- وهو مخزون له جذور عميقة في الخيال الأمريكي وروابط متينة بالمفاهيم العامة للقومية والوطنية. ومن بين المسائل التي تكرر ظهورها في هذا

(*) أي التحول في السياسة الخارجية الذي تدعو إليه هذه الدراسة.

الكتاب مسألة تأثير المخاوف - التي يمكن تفهمها- والتي تكونت عقب 11 سبتمبر في تغذية القوة الثقافية لهذا النهج على نحو أدى إلى إغلاق الباب أمام التفكير المنطقي والعقلاني والحوار والنقاش، وتلفيق الإجماع العام حول سياسات مضرة بالمصالح العامة.

وانتقلت رؤية المحافظين الجدد لإمبراطورية أمريكية من حيّز معاهد فكر اليمين المتطرف إلى أروقة البيت الأبيض لتشكل "مذهب بوش" في الحرب الوقائية وإستراتيجيات الأمن القومي للولايات المتحدة الأمريكية. إلا أن الحوار والنقاش حول الحكمة والمصلحة المرجوّة من هذه الرؤية لم يجد له مكاناً في وسائل الإعلام السائدة. ويبقى مصطلح "الإمبراطورية" مفهوماً مبهماً وغامضاً ودون معنى لدى غالبية أفراد الشعب الأمريكي. ومن هنا جاءت هذه المقابلات المتضمنة في هذا الكتاب لتجلية وتوضيح طبيعة الإمبراطورية وتأثيراتها اليومية: اعتمادها على الحرب المتواصلة دون نهاية؛ وتقويض الديمقراطية والحقوق المدنية باسم الأمن والحماية؛ وارتفاع وتيرة السرّية في النشاط الحكومي، والتضليل الإعلامي، وتمجيد الحرب والتسليح؛ وهدم ما تبقى من دولة الرفاه نتيجة ارتفاع نفقات مجهود الحرب، بينما تتحمل الطبقة الأكثر فقراً في المجتمع الأمريكي وطأة هذه السياسات؛ وتفجّر العجز في الموازنة والمديونية نتيجة تمويل الزيادة الحادة في نفقات الدفاع والمغامرات العسكرية في الخارج؛ وتعاظم الخسائر في الأرواح البشرية نتيجة لموت الشباب والشابات الذين يخدمون في الجيش بعد استدعائهم للقتال في قضايا جوفاء لخدمة أجندة تفتقر إلى التمحيص والنقاش العام حولها. وتبرز أهمية هذا التمحيص مع بدء الاستعدادات لدخول الانتخابات الرئاسية لعام 2004. وهو حدث جسيم في هذا المنعطف المصيري من التاريخ الأمريكي.